معالم المدن العراقية في رسائل نازك الملائكة

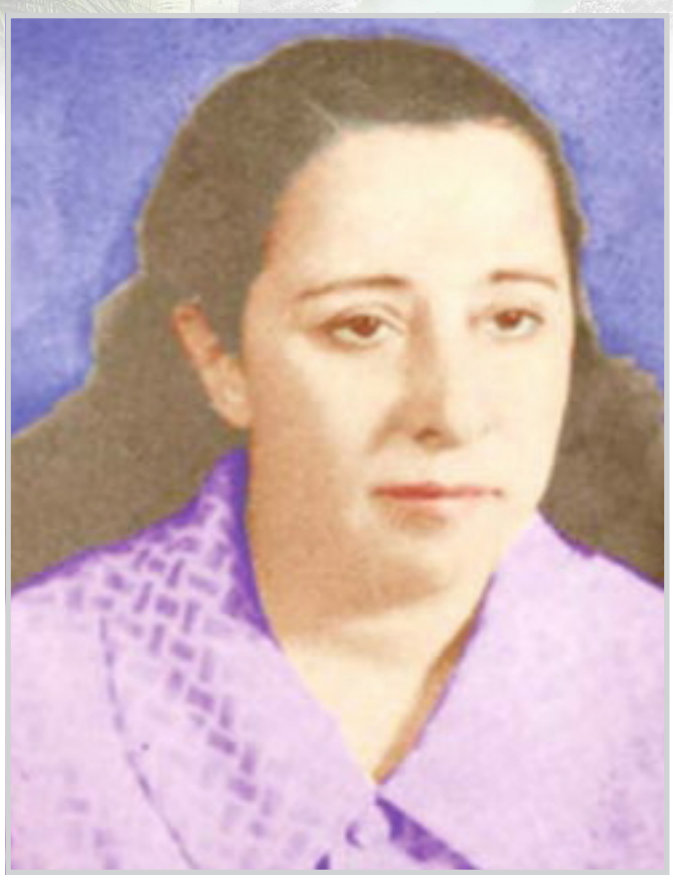

اعدتها للنشر: احسان الملائكة

الحلقة السادسة

إلى شقيقتها سها الملائكة
سرسنك في ٧/٧/١٩٤٨

عزيزتي سها
غادر القطار بغداد، وتوجه بنا نحو سامراء التي بلغناها في منتصف الليل، وحاولنا بعدها ان تنام، فنمت أنا ساعتين قلقتين، ونام نزار عشر دقائق، ولم تنم إحسان، ولما فتحت عيني مع الصباح لاح لي على الأفق البعيد جبل (كارة) وكأنه غمامة دكناء.

على ان اهم ما ينبغي تسجيله من ذكريات القطار حادث مرورنا في النفق المشهور الذي يسبق الموصل. أي ظلام! انني لم أواجه ظلاماً عميقاً بمثل هذه العصبية. كنت أتعلق بذراع نزار مرتعبة، لم يكن هناك سوى الظلام الغريب القائل، والنفق يمتد ولا ينتهي. أخيراً غادرنا النفق إلى النور، ولاحت الموصل على البعد.

ساعة كاملة قضيناها في المحطة مع اكداس الحقائب - استلقت احسان وزهرة على الأكداس، والحت علي إحسان ان استلقي مثلهما فأبيت وقلت إني أوثر الاحتفاظ بكرامتي!! وبقي حديث الكرامة موضع تفكه طيلة النهار بعد ذلك!

ثم مررنا بالموصل الشاحبة الكئيبة العتيقة التي لم تثر في مناظرها عرقاً واحداً. على اننا لم ننزل فيها، وانما توجهنا إلى سرسنك. غادرنا الموصل في الحادية عشرة والنصف بالسيارة، فلم نصل سرسنك إلا في الخامسة مساء، الطريق من الموصل حتى دهوك غريب الطباع، أثار حيرتي وحرك قلبي.. جبال جرداء موحشة ووديان عميقة عارية، ونحن نصعد ونهبط، وقلبي يتأرجح كالكرة هذه الجبال السامقة، هذه القمم المتهكمة الساخرة من الزمن، وعلى جبينها تتجعد القرون، اية ثورة ألهبت في أعماقي.. ثم وصلنا دهوك، فتبدل لون الطريق الأجرد إلى إخضرار فاتن..

اخضرار دهوك، ذلك الوادي الساحر الذي أمدنا بأصناف لذيذة من المشمش والكوجة والبطيخ والتفاح بثمن مضحك. آه لو كنتم معي جميعاً، فلقد قضيت بعد ذلك عدة ساعات في الجنة. بضع ساعات من الشهيق والارتعاش.. الجبال سامقة سامقة تذكرني بذلك المكان السحري (حاجي عمران) والألوان التي شهدناها مما لا يمكن وصفه أو تخيله وهذه (زاويته) الساحرة! كانت المناظر الطبيعية جميلة إلى درجة مخيفة فأصابني دوار، ولم اعد املك نفسي من الهتاف: نزار انظر!! إحسان لا حظي! وما أشبه من صرخات انفعالية.. ومررنا في الطريق بمجموعة من القرى الفاتنة "زاويته" و"سواراً توكا" الخ. اما "زاويته" فهي لوحة فنية ساحرة لا يتصور المرء أن في العراق مثلها. انها انبساط انحداري كبير لجبل ضخم تغطي سفوحه أشجار الصنوبر التي شاهدتها اول مرة هنا: والصنوبر شجر شاعري شديد الحساسية والرقة وهو يرسل في الجو انغاماً موسيقية شبيهة بأنغام القسم الرابع من (بحيرة البجع) لتشايكوفسكي.. صدقيني يا سها!!

نزلنا بزاويته الفاتنة لتناول طعامنا فقد كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر، ونحن جياع جداً، فجلسنا في ظل شجرة صفصاف، على سفح جبل مكسو بالأشجار، وتحت اقدامنا تنحدر المياه في واد ضحل جداً. وكان طعامنا يتكون من الفاكهة لا غير. والتقطنا صوراً لزاويته من عدة زوايا، ثم واصلنا السفر بالسيارة نحو سرسنك. كان الطريق يزداد فتنةً وروعة وسحراً كلما تقدمنا حتى اصبحنا نحس! بالتخمة، تخمة الجمال. الوديان تمتد بالآلاف، والجبال لا نهاية لها، جبال حمراء وجبال خضراء وجبال رمادية، وكل صخرة في هذه الجبال أشبه بجناح العنقاء كما أتخيلها، هذه الصخور تجعل للجيل منظراً مخيفاً قال نزار عنه (هنا يستطيع المرء ان يكون سريالياً!!) وكان هناك جبال سوداء بلون الليل. وهذه الجبال يا سها قد ذكرتني بما قرأته عن تلك الحيوانات الضخمة المخيفة التي كانت تملأ الأرض في العصور البائدة التي لم يلامسها فكر بشري، تلك الزواحف الهائلة الحجم التي يقال انها حين تموت كانت تتمدد بعظامها الضخمة فيغمرها الجليد وتتصلب وتستحيل صخوراً وهذه الصخور التي شاهدناها هنا ليست إلا بقايا من عظام تلك الزواحف هكذا أعتقد انا، وليقل العلماء ما شاءوا!! وشاهدنا جبالاً تلمع الثلوج على قممها، الجبال الصامدة المتفردة.. اين نحن يا ترى؟ وما أشد بعدنا عنكم!! هنا يا سها يستطيع الانسان ان يفهم معنى كلمة "الله" هنا يلمسه ويحسه ويراه ويسمعه، قولي هذا لأبي ولأمي ولكل أهل بغداد!

وفي الخامسة عصراً انبسطت أمامنا "سرسنك" بعد ان صعدنا في طريقنا إليها جبلاً عبرناه في احدى وسبعين استدارة جبلية لضخامته، وبلغنا سرسنك، يوتوبيا الضائعة بين الجبال في أقاصي الشمال فسكتنا خاشعين إزاء جمالها المثير. تقع هذه البقعة بين مجموعة من الجبال الشاهقة المفروشة بالخضرة العميقة والظلال الداكنة. والجزء الذي تقع فيه خميتنا، انا وإحسان ونزار يقوم على سفح ثلاثة جبال مشتركة وهي شاهقة جداً ووعرة ويصعب تسلقها. وتحت مكاننا في الوادي تمتد مجموعة من القرى الفقيرة والغنية بالمياه والخضرة ان سرسنك ياسها تختلف كل الاختلاف عن جبل صلاح الدين الذي صيفنا فيه العام الماضي، فهي أي سرسنك اروع واجمل وابرد. ثم هناك العيود المتحدرة بين الصخور. سرسنك واد، وصلاح الدين جبل، والليل في سرسنك رهيب قاتم وليس فيها أي مظهر من مظاهر المدنية من ثم فليس فيها شوارع ولا كازينو ولا اضواء. اما النجوم فهي هنا شيء خاص انها براقة الى حد لا يطاق، بسبب الظلام الدامس وانعكاس سواد الجبال على كل شيء وقد رأيت نجوماً لم يسبق لي ان رأيتها ابداً. ثم هناك شيء آخر غريب جميل، في الليل تطير حشرات عجيبة تملك قوة اشعاعية، حشرات براقة لامعة، وخيل الي حين رأيتها اول مرة ان حارساً يحمل ضوءاً يسير نحونا!! هذا المنظر يا (سها) اروع من ان تحتمله الاعصاب. وبودي لو كنت معنا. وفي الجبال المجاورة ثلاثة عيون للماء، ونحن نشرب منها مباشرة، ماء بارد بارد، أبرد من ماء الثلج الذي نشتريه في بغداد، لكن المشكلة تتمثل في كيفية غسل الاشياء فيه، لشدة برد الماء فيها لانها تنحدر من قلب الجبل، وهي تجري بقوة جارفة على الصخور والحصى الملون البديع مرسلة في الجو انغاماً ساحرة وفي النهار تنعكس الشمس الحمراء على القمم الشاخصة انعكاساً شعرياً فاتناً. انني لم اشهد في حياتي مكاناً له سحر سرسنك، بعد غد سنسافر الى "السولاف" و"سر عمادية" وهما يبعدان ساعتين عن سرسنك الفاتنة.

(احسان) سوف تكتب اليكم اما (نزور) فهو كسول ولن يكتب وكلنا في صحة جيدة: تحياتي واشواقي اليكم جميعاً، واحداً واحداً عنواننا البريدي كما يلي: الموصل- دهوك- مصيف سرسنك- مخيم دار المعلمين العالية- نازك الملائكة.

المخلصة نازك

الحلقة السابعة

سرسنك في ١٠/٧/١٩٤٨
الى شقيقتها سها

عزيزتي سها، يدفعني الشوق الى ان اكتب رسالة ثانية اليكم على الرغم من كتابتي اليكم قبل يومين بعد ظهر امس خرجنا، انا واحسان وزهرة وزوجها مع طفلتهما، نحمل ادوات الشاي، وسرنا صعوداً في الجبل وجلسنا عند عين ساحرة، وكانت المياه الصافية الثلجية تنفجر في خرير موسيقي رائع شبيه بموسيقى سيبيليوس وبعد شرب الشاي، خرجنا نسير، نتتبع مجرى الماء حتى منبعه البديع في الجبل. كان المجرى يتلوى بشكل غريب يحير القلوب، وتحف به صخور ملونة كبيرة، وكانت المنطقة كلها غابة كثيفة متشابكة الاشجار، وهي اشجار جبلية غريبة لم نشهد لها مثيلاً في جبال أربيل، الجبال هنا مكسوة بالغابات والاحراش ورحنا نشق طريقنا شقاً بين الاشجار، واحياناً كان يعسر المرور فلا يبقى موضع لقدم، كل هذا والينبوع يتلوى مزمجراً بسرعة جارفة بين الصخور الرائعة وبلغنا المنبع فاذا هو يتألف من شقين بين الصخور، تتدفق من كل منهما عين ماء، ما اروع هذه المياه الثلجية واية مياه هذه اية غزارة! أية عذوبة؟! انني شديدة الاستغراب من هذه المناظر الساحرة، كم اتمنى ان تحضروا جميعاً في الصيف القادم الى هذه الجنة ولا تسألي يا (سها) من الانواع المدهشة من النباتات والازهار التي عثرنا عليها هنا، فلقد امتلأ جيبي ازهاراً نادرة اضطررت فيما بعد الى القائها في ماء العيون ولم نعد الى خيمتنا الا بعد ان هبط الظلام على الاحراش فهبطنا الجبل الى وادينا الجميل، واقبل الليل الرهيب الحالك السواد، وبدت الجبال وكأنها تحمل النجم على قممها، واضطررنا لهذه الاسباب الى النوم في التاسعة ليلاً حياتنا هنا كما تلاحظين فطرية، فنحن نمشي كثيراً، ونأكل كثيراً، وننام كثيراً.

استيقظنا صباح اليوم نشيطين، وجلسنا انا واحسان تحت ظل شجرة جوز في سفح الجبل ما يقرب من ثلاث ساعات رومانيتيكة، كنت انا في حالة شعرية اكيدة، فكتبت قصيدة قالت احسان انها بديعة وناجحة جداً، وقد جاءت دون ان اقصد موافقة لنغمات الماء المتفجر بين الحصى والصخور، القصيدة في القسم الاول منها ليست الا موسيقى تعبيرية تصور المناظر المحيطة بي بالنغم لا باللفظ، وهذه طريقة حديثة في الشعر يكثر استعمالها ادباء الرمزية، الا ان قصيدتي بعيدة عن الرمزية بعداً تاماً فهي واضحة لأن الجبال لا توحي باي غموض، والشمس مشرقة والوديان خضراء ندية توحي بالجو الشعري. الليل وحده هنا سريالي، ولذلك سأؤجل كتابة أي شيء فيه حتى اعود الى بغداد ويستولي علي ضجر الغروب القاتل، فأعيش ليالي سرسنك بالذكرى اذ ذاك سأعود الى السريالية ثانية!!

كان عنوان القصيدة "يوتوبيا في الجبال" ويلاحظ ان وزنها غريب قليلا وانا غير مسؤولة عن هذا فمنذ يومين وانا اصغي باستمرار الى دوي المياه بحيث أوحى لي استعمال هذا الوزن الذي لم يكن يخطر لي على بال قبل سرستك ها هو المطلع:

تفجري يا عيون
بالماء، بالاشعة الذائبة
تفجري بالضوء، بالالوان فوق
الغربة الشاحبة
في ذلك الوادي المغشى بالدجى
والسكون
تفجري باللحون
فوق انبساط السفح بين التلال
في المنحنى حيث تموج الظلال
تجت امتداد الغصون
تفجري بالجمال
وشيدي يوتوبا في الجبال
يوتوبيا من شجرات القمم
ومن خرير المياه
يوتوبا من نغم
نابضة بالحياة

على ان القسم الثاني من القصيدة، لا يرتكز الى النغم وحده وانما جاءت فيه حملة شديدة على بعض الناس ودفاع عن ناس اخرين، وهذا القسم اعمق من القسم الاول ولا شك.

ها انا اتم رسالتي. انا الان جالسة على صخرة بيضاء كبيرة عند حافة شلال منغم مدو. نزار جالس على صخرة قريبة يكتب مذكراته، احسان وزهرة والطفلة سوسن يجلسن على بطانية عن شلال قريب المكان جميل جدا بارد بحيث نرتدي جميعاً معاطفنا الشتوية وجوربنا وقيعاتنا وتنبسط حولنا اشجار ضخمة من بلوط وتين وجوز وعشرات الاشجار التي لا اعرف اسماءها اذ لا مثيل لها في بغداد، وأمامي كروم طبيعية لم يزرعها البشر.. احسان تقرأ كتابا باستغراق واضح، اما انا فسعيدة منتشية، منفعلة جدا نسافر صباح الغد الى السولاف والعمادية بالسيارة احسان ونزار مثلي انا في تمام الصحة ولا يشكوان الا احمرار وجهيهما وايديهما وارجلهما كما اشكو انا.

اشواق وتحيات كثيرة كثيرة من المخلصة:

نازك

زاويته في ١٢-٧-١٩٤٨
الى شقيقتها سها

عزيزتي سها
اكتب اليك من هذه البقعة الجميلة التي بلغناها منذ ساعتين وسأحاول التحدث اليك عن حياتنا هنا. امس صباحا سافرنا الى وادي السولاف وبدأنا الصعود بالسيارة الى قمة جبل عمادية الشاهق الوعر الذي يطل على وديان عميقة مخيفة، يرتاع من يجرؤ على التحديق فيها من اعلى مدينة العمادية تقع على فوهة بركان منطفئ قديم، وفيها منارة اثرية تركها عماد الدين زنكي، الذي سميت المدينة باسمه، ووقفنا انا واحسان ونزار والاستاذ عبد الرحمن القيسي على حافل الجبل، نحدق في وادي (روبار) الذي يمتد تحت العمادية، والتقطت له صورة من هناك ومررنا بكنيسة العمادية، فاستقبلنا فيها (ابونا) القس بملابسه السود المطرزة، وجلس يكلمنا عن احوال الناس هناك، مصادفة ناداني السيد عبد الرحمن القيسي باسمي فقال (ابونا): نازك؟.. هذا الاسم يذكرني بنازك الملائكة التي احب شعرها؟ قال السيد عبد الرحمن: "الفتاة التي تراها هي نازك الملائكة بعينها" علقت احسان على ذلك فيما بعد قائلة "من يتخيل اننا نجد على قمة هذا الجبل قسا يقرأ شعرك ويهتم به هكذا؟.." غادرنا العمادية بعد ساعة، شد ما تثير هذه المدينة الجرداء الفقيرة كآبتي!.

هبطنا الى السولاف "سلامات" والسولاف واد ضيق شبيه بكلي علي بيك الذي وصفته لك في رسائل العام المنصرم.

ومعنى لفظ "السولاف": الشلال وما كدنا نترك السيارة حتى قابلنا الاستاذ احمد المهداوي احد زملائي في دار المعلمين العالية ايام الدراسة فرحب بنا وصحبنا الى عريشته الخاصة، حيث قضينا ساعات وتناولنا طعامنا وشربنا الشاي وكان معنا، انا واحسان كل من زهرة زوجها، السولاف قبل كل شيء بقعة غزيرة المياه، مشهورة بشلالاتها وعيونها التي لا حصر لها، والسولاف مثل شقلاوة، فحيثما اتجه الانسان ملأ سمعه دوي المياه المنحدرة على الصخور وكانت عريشة السيد المهداوي تقع على حافة شلال ضخم جارف المياه، تنحدر مياهه في ضباب ابيض ساحر على صخور ضخمة جلست عند قدم الشلال مسحورة وشربت من الماء البارد الثلجي وكان دوي الشلال يزيد المنظر رهبة ونحن في قلب غابة كثيفة من اشجار التين والجوز والبلوط والقوغ والتوت الخ.. بحيث يعسر السير خطوتين ان لم يكن هناك طريق ممهد خاص للمارة، والصخور الضخمة معلقة فوق الرأس بحيث يخيل للناظر انها ستسقط في اللحظة التالية، مع انها ما زالت معلقة منذ مئات السنين التقطت للشلال عدة صور ولنفسي ايضا ولمن معي.. خرجنا بعد ذلك نسير متتبعين مجرى الماء، واضطررنا ان نخوض في الماء البارد.

في كثير من الاحيان حتى لم تبق لاحد بيننا كرامة!! الا اننا استمتعنا بشيء اثار استغرابنا. كانت اشجار التوت ملء المكان، وليس هذا وجه الغرابة، ففي بيتنا بالكرادة الشرقية شجرتا توت ضخمتان، ولكن اشجار التوت عندنا لا تثمر في منتصف تموز كما يحدث هنا في السولاف واي توت لذيذ؟! سأترك لكم حرية النخيل عصراً هبطنا مشياً الى وادي (روبار) الواقع بين جبال عمادية وجبال "سر عمادية" وسلسلة جبال اخرى وسلاسل الجبال هنا تمتد الى مسافات شاسعة وهي مكسوة بأحراش كثيفة، تتخللها قرى وسفوح خضر ووديان لا حصر لها، وللانجليز معسكر في طريق (ارادن) وهم قد اكتشفوا في قمة جبل "سر عمادية" السامق ارضاً منبسطة ممهدة، فاقاموا عندها مطاراً يندر مثله ربما في كل العالم، لانه واقع في قمة جبل شاهق، ولو كانت بلادنا لهم لحولوها الى يوتوبيا حقيقية، وليست مثل يوتوبيا الخيالية التي احلم بها انا

في الجبال هنا اشجار بديعة لها سيقان مستقيمة استقامة تامة لا تعكرها العُقد، واسمها الكردي "القوغ" وقد افتتنت بهذه الاشجار، وكدت اتحدث عنها في قصيدتي "يوتوبيا في الجبال" الا انني اصطدمت بلفظة "قوغ" الفظيها ياسها بصوت مسموع وقدري موقعها في قصيدة، وهكذا اضطررت الى صرف النظر عن ادخال شجرة التوغ في قصيدتي بسبب (أسمه غير الرومانتيكي، ثم قال نزار ان هذه الشجرة هو الذي يسميه العرب "البان" رحنا هو وانا واحسان نتلو ما نحفظ من الشعر في "البان": (يا ظبية البان) و(غصن بان كلما عاتبته) و(غصن بان مال من حيث النوى) و(على غصون البان) الخ اننا لاحظنا ان تشبه "الحبيب" بالبان تشبه سخيف، لان معناه ان حضرة الحبيب المصون لابد ان يكون "عوج بين عنق" اولاً، ثم انه صلب لا يميل ولا يلتوي!! لا بأس على كل حال، فلفظة بان اجمل من لفظة قوغ..

لعلكم لستم مشوقين الينا جداً، ذلك لانكم لا تستطيعون ادراك المسافة الهائلة التي تفصلنا عنكم كل ما في الامر انكم فارقتمونا أسبوعاً اما نحن فنعرف اية جبال، اية وديان، أي مدى شاسع بيننا وبينكم لذلك نحس فراقكم احساساً عميقاً الى درجة تجعل الحديث عن عودتنا اليكم الذ حديث وكيف حال غرفتي يا سها؟ وكيف حال تشايكوفسكي الحبيب؟ وكيف صحة مكتبتي؟ والعود؟ وكيف شجرة السرو في الحديقة؟ الحديث عن العودة يثيرني على الرغم من الجمال الذي يحيط بي ما اسخف قول الشاعر: (سافر تجد عوضاً عمن تفارقه) ان الارض التي نفارقها تحفز في اعماقنا بحيث نرى كل شيء سواها صحراء.

هل تعلمين باية حرارة اشتاق الى بغداد اما الاستعاضة عنكم بآخرين فشيء مستحيل ان الناس يلوحون لي ثعابين كلما قارنتهم بكم وانتم تلوحون لي انصاف آلهة كلما قارنتكم بهم منذ يومين تحدثنا انا ونزار واحسان في هذا الموضوع فقررنا ان امي وابي خير ابوين في الدنيا..في الختام ابعث اليكم تحياتي واشواقي.

نازك